تمهيد

ما زالت أجواء دمشق حتّى ذلك الحين محمّلة بالأهواء الأُمويّة..

وقد ظهرت تلك الأهواء في عقائد ابن تيميّة ظهوراً لا نظير له حتّى عند أُولئك الأقطاب الّذين عاصروا الملوك الأُمويّين ووطّدوا أمرهم. فلم يحظ الأُمويّون طيلة أيّامهم برجل برّر أخطاءهم وناضل في تزكيتهم كما صنع ابن تيميّة بعد انقراضهم بستّة قرون!.

فلم يكتف بالذبّ عنهم وتبرير أفعالهم من نقضٍ لأحكام الشريعة، وتعطيل لحدود الله، وإفشاء القتل في أصحاب رسول الله وفي غيرهم من المسلمين، واستباحة المحرّمات، واستباحة المدينة المنوّرة وقتل رجالها واستحياء نسائها، وهدم الكعبة الشريفة، وغيرها من الكبائر والفواحش. لم يكتف بهذا، ولم يقف فيه عند حدود وقف عندها قدماء أوليائهم، بل تعدّى ذلك كلّه حين فاقهم جرأةً على السُنّة النبويّة، بل حتّى على النبيّ ﷺ نفسه، فكذّب أحاديث صحيحة، وحرّف معانيَ أُخرى، وتعلّق بالموضوعات، لا دفاعاً فقط، بل تزكيةً وتعظيماً لأُولئك الملوك.

وإليك في هذا التمهيد أُنموذجين فقط:

الأوّل ـ مع معاوية:

كان ابن تيميّة أوّل رجلٍ يحقّق أحلام دمشق القديمة في خلق كتابٍ في

(فضائل معاوية).

فلم يكن معاوية بريئاً فقط من كلّ ما تحمّله في تاريخ حياته، بل هو صحابيّ مقدّم له فضائل كثيرة يجمعها ابن تيميّة، ولأوّل مرّة في التاريخ، في كتاب مفرد بعنوان (فضائل معاوية وفي يزيد وأنّه لا يُسَبّ)![1] فيزيد هو الآخر وإن كان له ذنوب فإنّ له حسنات ماحية لتلك الذنوب!.

ولا بُدّ في البدء أن يبرّئ ساحة معاوية من كلّ ما يلحق بها، حتّى تلك الوصمة التي لحقتها حين استلحق زياد بن أبيه فجعله زياد بن أبي سفيان!.

هذه الوصمة يعود منها معاوية نقيّ الثوب في مدرسة التأويل!.

يذكر ابن تيميّة أعذار المجتهدين إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فيقول: السبب العاشر: معارضته ـ أي الحديث ـ بما يدلّ على ضعفه أو نسخه أو تأويله ـ إلى أن يقول ـ وكذلك استلحاق معاوية ﷺ زياد بن أبيه المولود على فراش الحارث بن كلدة، لكون أبي سفيان كان يقول إنّه من نطفته، مع أنّ رسول الله ﷺ قد قال: «من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنّة عليه حرام» وقال: «من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً» حديث صحيح. وقضى أنّ الولد للفراش، وهو من الأحكام المجمع عليها... فلا يجوز أن يقال: إنّ هذا الوعيد لاحق له، لإمكان أنّه لم يبلغهم قضاء رسول الله ﷺ بأنّ الولد للفراش. واعتقدوا أنّ الولد لمن أحبل أمّه، واعتقدوا أنّ أبا سفيان هو المحبل لسُمَيّة أُمّ زياد![2].

---

(١) الوافي بالوفيات ٧: ٢٦.

(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ٤٨ ـ ٤٩.

فهل حقّاً خفي هذا القضاء على معاوية وزياد ؟! إنّه لم يعرف التاريخ أمراً ضجّت له الناس في عهد معاوية أشهر من هذا، وكلّهم يتحدّثون بهذا القضاء النبويّ، وواجهوا به معاوية غير مرّة وشهّروا به، وكان أوّلهم يونس بن عبيدالثقفي، قام إلى معاوية في أول مجلس يعلن فيه استلحاق زياد، فقطع عليه خطبته قائلاً: يا معاوية، قضى رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الولد للفراش وللعاهر الحجر، فعكستَ ذلك وخالفتَ سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال معاوية: أعِد. فأعاد يونس مقاله. فقال له معاوية: يا يونس، والله لتنتهينّ أو لأطيرنّ بك طيرةً بطيئاً وقوعها![1].

ولو أنّك أقسمت أنّ ابن تيميّة يعلم بهذا كلّه لكنت صادقاً، لكنّه لمّا أغراه الدفاع عن الحاكمين هان عليه الاستخفاف بالدين، بل وكلّ القِيم حين أقرّ لمعاوية حدثاً أنكره عليه الصالحون في عصره وعلى مسمع منه ومن زياد كما أنكروه بعدهما، حدثاً عدّه الإسلام من فضائح الجاهليّة، لكن فرضه سلطان معاوية على المسلمين عن علم وإصرار، ولن يعدمَ السلطانُ مفتٍ يبرّر أخطاءه!.

وبعد هذا تأتي فضائل معاوية..

فضائل عرف الصالحون من علماء السَّلَف أنّها كلّها موضوعة باطلة وضعها المتزلّفون له ولخَلَفِه، وإلّا فمن أين جاءت تلك الفضائل، وهذا النسائي صاحب السنن يسأله أهل دمشق عن فضيلة لمعاوية، فيقول: لا أعلم له فضيلة إلّا «لا أشبعَ اللهُ بطنه» فداسوا في حضنه ـ أو خصيه ـ حتّى قتلوه ؟![2].

لكن هذا الحديث المتّفق على صحّته راح بعض دعاة الدفاع عن السَّلَف يعدّه في فضائل معاوية، بل يجعله أوّل فضائله وأهمّها، كما صنع ابن عساكر، وشرب

---

(١) مروج الذهب ٣: ١٧، الإتحاف بحبّ الأشراف: ٦٧، علي وبنوه: المجموعة الكاملة لطه حسين ٤: ٦٣٢، ٦٣٩ عن البلاذري.

(٢) وفيات الأعيان ١: ٧٧، سير أعلام النبلاء ١٤: ١٣٢.

كأسه ابن تيميّة، ثمّ ناصر الدين الألباني في تأويل يندى له الجبين، ينالون من النبيّ الأكرم ﷺ ليذبّوا عن معاوية !!.

فالألباني بعد أن أثبت صحّة الحديث «لا أشبع الله بطنه» يقول: قال ابن عساكر: إنّه أصحّ ما ورد في فضائل معاوية !.

فالحمد لله ربّ العالمين على هذه (الفضيلة) التي أقرّت عيون هؤلاء، فراح الألباني يفسّرها، فيقول: إنّ هذا الدعاء منه ﷺ غير مقصود، بل هو ممّا جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نيّة !.

وقال: ويمكن أن يكون ذلك منه بباعث البشريّة، التي أفصح عنها هو نفسه ﷺ في أحاديث كثيرة متواترة، منها حديث عائشة عنه ﷺ قال: «أوَما علمتِ ما شارطتُ عليه ربّي ؟ قلتُ: اللّهمّ إنّما أنا بشر، فأيّ المسلمين لعنتُه أو سببتُه فاجعله له زكاةً وأجراً».

ـ ولكنّ هذه الزكاة مقيّدة بالحديث الآخر الذي أورده الألباني بعد هذا، وفيه: «فأيّما أحد دعوتُ عليه من أُمّتي بدعوةٍ ليس لها بأهل»[1].

إذن حين نقذوا إلى قلب النبيّ ﷺ فعلموا خَفيّ سرّه، وأنّه قد قال هذا القول في معاوية (عن غير قصد) و (بلا نيّة)، أو قاله (بباعث طبيعته البشرية)، هل يصعب عليهم أن يجزموا بأنّ معاوية (ليس لها بأهل) لتنقلب إذن تلك الدعوة زكاةً وأجراً !.

هنا من السهولة بمكان أن يتناسوا حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: كنتُ أكتب عن رسول الله كلّ ما أسمع منه، فقالت لي قريش: أتكتب عن رسول الله وإنّما

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ١٢٣.

هو بشر يغضب كما يغضب البشر؟ فأتيتُ رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فأشار إلىٰ شفتيه وقال: «والذي نفسي بيده ما يخرج ممّا بينهما إلّا حقٌّ، فاكتب»![1].

نُسيَ هذا لأجل السلطان!!.

ترى هل أعجبهم فيه سبق إسلامه، أم كثرة جهاده مع النبيّ ﷺ؟! فإذا لم يجدوا له سابقة فضل ولا جهاد، فهل أغراهم كونه من المؤلّفة قلوبهم؟!.

هذا، وهُم يعلمون أنّ دعوة النبيّ ﷺ عليه قد أصابته، فكانت دعوةً مستجابة، فلا بُدّ أن يكون معاوية أهلاً لتلك الدعوة.

ففي دلائل النبوّة نقل البيهقي عن أبي عوانة من حديث ابن عبّاس أنّه قال بعد ذكر الحديث: «فما شبع بطنه أبداً».

وقال: وروي عن أبي حمزة في هذا الحديث زيادة تدلّ علىٰ الاستجابة[2].

وقال الذهبي: قد كان معاوية معدوداً في الأكَلَة[3].

ولهذا كان محبّو معاوية القدامى حين علموا أنّه قد أصابته هذه الدعوة، ذهبوا إلىٰ تفسير آخر غير التفسير المتقدّم، ليجعلوا تلك الدعوة المُستجابة منقبةً، فقالوا: قال النبيّ: «لا أشبع الله بطنه» حتّى لا يكون ممّن يجوع يوم القيامة، لأنّ الخبر عنه أنّه قال: «أطول الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»[4].

إذن هي عندهم دعوة مستجابة، لكنّهم تحيّروا كيف يجعلون منها فضيلةً،

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٠٧، وصحّحه الحاكم والذهبي: المستدرك ١: ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) دلائل النبوّة ٦: ٢٤٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٣.

لتكون أصحّ ما جاء في فضائله !.

أما فضائله الأُخرى فيقول فيها إسحاق بن راهويه ـ المقرون بالإمام أحمد ابن حنبل ـ: لا يصحّ عن النبيّ في فضل معاوية شيء[١].

إذن فدعوى كونه من كتّاب الوحي هي من التزوير المتعمّد، فالمرويّ فيه أنّه كتب بين النبيّ وبين العرب، لا غير[٢].

أمّا عند ابن تيميّة فالذي ينكر فضائل معاوية لا يكون إلّا شيعيّاً، تماماً كما حكم أهل دمشق على النسائي، ولهذا السبب بعينه وَصَفَ الحاكم النيسابوري بالتشيّع ! فلم يُنسَب الحاكم إلى التشيّع لأنّه كان يقول بتفضيل عليّ عليه السلام، بل لأنّه كتب في فضائل عليّ، فقيل له أن يكتب في فضائل معاوية، فامتنع[٣].

فلبّى ابن تيميّة ذلك النداء دون أن يسأله أحد !.

أمّا الحسن البصري الذي عاصر معاوية ورآه وعرف سيرته، فقال فيه: أربعُ خصالٍ كنّ في معاوية لو لم يكن فيه إلّا واحدة لكانت موبقة:

الأُولى: انتزاؤهُ على هذه الأُمّة بالسيف حتّى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.

والثانية: استخدامه بعده ابنه سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

والثالثة: ادّعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر».

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ١٣٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣) منهاج السُنّة ٤: ٩٩.

والرابعة: قَتْلُهُ حُجْراً وأصحابُ حُجْر، فيا ويلاً له من حُجْر، ويا ويلاً له من حُجْر[١].

وفوق كلّ ما قيل وما يقال قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله في الحديث الصحيح الذي لم يجادل في صحّته أحد، رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبغوي، ذاك قول النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق»[٢].

وهل يجادل أحد في أنّ معاوية كان من أئمّة المُبغضين لعليّ عليه السلام، قاتَلَهُ بُغضاً، وأمر خطباءه في أنحاء البلاد بلعنه هو وأهل بيته على المنابر بغضاً، فمضوا على تلك الحال ستّين عاماً! أمَرَهمُ اللهُ ورسوله أن يتمسّكوا بهم ويصلّوا عليهم، وأمرهم معاوية أن يقاتلوهم ويلعنوهم، فعبدوا معاوية دون الله.

وأمر معاوية أصحابه أن يختلقوا أحاديث في النيل من عليّ بُغضاً.

وأمرهم أن لا يتركوا له منقبةً إلّا وضعوا للخلفاء الأوّلين ما يقابلها، بغضاً.

ولا يتركون أحداً يُعرَفُ بحبّ عليّ إلّا محوا اسمه من الديوان بغضاً.

ثمّ جاء بعده مَن أُشرِبَ قلبُه هذا البغض وحبَّ ذاك البغيض، فجعل تلك الأفعال كلّها حسناتٍ وفضائل واجتهاداً في الدين! فهو مأجورٌ عليها مشكور السعي!.

الأنموذج الثاني ـ مع طريدَي رسول الله صلى الله عليه وآله:

الحكَم وابنه مروان، طريدَي رسول الله، كانا بريئين من كلّ ذنب!!.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٨٧، تهذيب تاريخ دمشق ٢: ٣٨٤، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٦٢ و ١٦: ١٩٣.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ ١: ٨٦ / ١٣١، سنن الترمذي ٥: ٦٤٣ / ٣٧٣٦، سنن النسائي ـ كتاب الإيمان ٨: ١١٦، سنن ابن ماجة ١: ٤٢ / ١١٤، مصابيح السُنّة ٤: ١٧١ / ٤٧٦٣.